الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

كيف نصنع الجلّاد؟

حميد قاسم

١

"الجلاد خطأ الضحية" هكذا قال الشاعر المبدع سلام كاظم في قصيدة ألقاها في اتحاد الأدباء قبل ربع قرن تقريبا..، لكم تبدو العبارة قاسية، ومراوغة، وقابلة للتأويل، خاصة من "الجلاد" وتمظهراته المتعددة في المجتمع، بوصفها شهادة براءة له، كما يبدو لمن تقف مخيلته عند السطح وما يطفو فوقه..! نعم، إن مافيها من القسوة صحيح تماما، وضروري، وهو مما يقع في دائرة المسكوت عنه، لدى من يتواطأون مع أنفسهم ضد الحقيقة، فلا يعترفون بأن الجلاد صنيعتهم، هم الضحايا، بل خطأهم الذي لا يعترفون به. اليوم، لكم نبدو بحاجة لتدبر هذه العبارة الصادمة، في قصيدة قيلت بألم ومرارة ومكاشفة عالية لايملكها سوى الشعراء الكبار من طراز سلام كاظم..!

٢

على مدى عقود، لاذ النبيل والرفيع والجميل، بالصمت وتوارى خجلا أو خوفا، وهدر صوت الدوني والوضيع والسافل طمعا -ولربما خوفا- حتى أضاع سفهاؤنا حلماءنا.

حلماؤنا تنصلوا عن مهامهم التي "ثبرونا" بها دهرا، فثبت أنهم ليسوا أهلا لما ادّعوه، وأغلبنا -إن لم أقل كلنا- "في الهوى سواء"..اليوم يتكرر المشهد بصفاقة أكبر، في حمأة الصخب والمشهد المحتدم منذ خمس سنوات، الحافل بضجيج الشعارات عن الاحتلال والتحرير وسقوط الصنم والعملية السياسية والعراق الجديد والنظام الديمقراطي والفتنة الطائفية والصحوات والميليشيات والحرس الوطني والشرطة وقوات مكافحة الإرهاب والتفخيخ ونعال "ابو تحسين" الذي تناهبه الجميع.. في المشهد الذي يتصدره لون الدم ورائحة البارود ودوي الانفجارات والمعارك والبكاء والدموع، حضر حاسرو الرؤوس والمغترون والمعممون والمعقلون والمسدرون، والمنقبات والمحجبات.. تسيّد "العلاسة" و"الصكاكة" و"الخوشية" و"الحواسم" في اللغة والحياة، و"توارى" ثانيةً النزيه: العالم والباحث والشاعر والمهندس والطبيب والدبلوماسي والمفكر.. تذرعوا بأن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة، وان قطرة بول تنجس المحيطات. أولئك جلادون.. صنعهم هؤلاء ليكونوا ضحاياهم الجدد، هكذا نصنع الجلاد الذي يُعاد انتاجه في دورة تشبه دورة المياه في الطبيعة، جلاد يخرج من عباءة جلاد، حاكها ضحية خانع، لا يشفع له أنه لايملك غير رأيه وكلمته وموقفه ونزاهته وحيائه و... صمته، بمواجهة اللص والمزور والكاذب والمدلس والانتهازي والوضيع والصفيق والرقيع.. القاتل.

٣

الضحية ذاته -في حالات مثيرة- يصبح جلاداً في أول فرصة مؤاتية.. في عراقنا اليوم حيث كل مفاهيمنا تمشي "عكرف لوي" يجد المضطهد نفسه فجأة حراً من سطوة جلاده، بعد أن بقي دهراً إنموذجاً للإنسان المعذب بعقود من الاحساس بالضعة والتهميش، والإذلال المنظم وفق نمط صارم يمسخه ويحطمه من الداخل حتى يفقد ثقته بنفسه وبآدميته.. إنه كائن أشبه بالعبد المخصي -اتحدث عن العبودية بوصفها فكرة ترسخ في الاعماق، لا بوصفها وضعاً يرتبط باللون أو العرق- فما الذي يفعله المخصي حين تجيئه حريته، وفرصة ممارسة فحولته معا، في لحظة لم يعد فيها يمتلك ذرة من تلك الفحولة المتوارية بعيدا، لحظة أدمن فيها عبوديته ولم يعد قادراً على مفارقة الاحساس بها؟. أي رغبة عارمة في الانتقام، لا تجد إنموذجاً تتشبه به وتتماهى معه سوى إنموذج مضطهدها الأول: جلادها ذاته، لتتناسل عشرات الشخصيات المشوهة التي ما من مثل أعلى تتخذه راية وتتخذ سلوكه نهجاً وقسوته سبيلا؟ وتتناسى أن جلادها العتيد ذاك، كان قد مر بنفس "الجلجلة".. الضعة والصغار والكبت والإذلال وكل ما يغذي عقدة الدونية وشهوة الانتقام.

ألا نزال بحاجة إلى ثقافة اليسار؟

> في الوقت الذي تقدم فيه الماركسية نصوّراً للاصلاح الاجتماعي، المحلي باتجاه العالمي (الاممي)، وتُلزم الافراد على الانضمام الى "الحشد" لإنجاز البناء، يسحب الغرب البراغماتي الفرد من الحشد، يمنحه "الحرية" في تصور المجتمع على طريقته وفي مدى من الحركة يمنح "الفرد" رضى "روحيا".. ولاشك في أن هذه انعطافة تاريخية من حيث الاهتمام بفردانية الذات. ولاشك أيضاً في أن هذه اعادة بالإنسان الى المدى الاول، او البدائي، في الحركة والنيل والتصور والوجود، وان كانت العودة ضمن غابة الحضارة المزدحمة والمعقدة.

ياسين طه حافظ

ولذلك فنحن في هذا الزحام والتعقيد لا نظل بذلك الزهو، الذي لا حصيلة وراءه. هو بالتأكيد زهو مبهج، لكن اساسه "العلمي" افتراضي" يرتبك أمام التساؤل: هل نستطيع التمتع بهذه الحرية وسط تشابك المصالح والمصائر والضرورات المتفاقمة بعد التكنولوجيا؟ قدْرَ ما يُفرح التلويح بالوصول، نحن لم نبتعد عن يوتوبيا نظرية فيها شيء من المثالية، فيها مسحة أخلاقيةٍ مسيحية وفيها رغبة مُضْمَرَة في التحرر، رغبة حذِرة بالتأكيد..

الحجة التي يعتمدها الفكر اللبرالي عموما، هي انهم يرون الإقناع عن طريق الاستدلال والحكمة لا عن طريق القوة "والعنف" وفي هذا شاعرية وإرضاء أخلاقي، لكننا، للاسف لا ننجز به عملاً حاسماً. الحكمة في اصطحاب هذا المضمون لكن ليس في الاعتماد عليه..

نعم، يمكن اعتماد هذا، او تصديقه، بعد إنجاز مراحل التحولات الحضارية، بالنسبة للفكر الغربي الرأسمالي، وبعد تجاوز الاشتراكية واكتمال آخر مراحل الشيوعية بالنسبة للفكر الماركسي. وفي الحالين نحن على مبعدة كبيرة من زمن التحقق، "الافتراضي" أيضاً!

وإذا كان من ميزة لأحد الاتجاهين فلأننا نجد في احدهما مرتكزاً يمكن اعتماده في الحديث الايجابي. وهو البحث عن مسعى واقعي تعتمد فيه "الكونية" على تصور طبيعة إنسانية مشتركة. وفي هذا مفترق خطير فهو إما ان يكون وهماً و سلبية من بقايا التنوير وروحية مجتزَأة من الخطاب الديني، وإما ان يتخذ شكل نضال شعبي إنساني، ليس مستبعدا ان تلتفّ عليه الانظمة الشمولية وتوظفه في تصادر تسخير الجماهير ومصادرة القسم الذي حققته في عقود من السنين بقرار انحرافي تدفع الجماهير ثمنه من مستقبلها فضلا عن خسارة ماضيها النضالي الدامي. وهذا تماماً ما شهده القرن العشرون من اقطار عديدة في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية.

المشكلة هي ان الشعوب لا تمتلك طريقا عمليا آخر غير هذا الغمار الصعب المحفوف بالانحرافات والتواطؤات والارتداد. وغير ذلك الاتجاه الذي يتمتع بجمالية ويفتقد امكان العمل او التطبيق. المفترق الصعب، العقلي والعملي هذا سببه اننا ورثة ثقافات تاريخية، وهي ثقافات هيمنة ومصالح. اننا نواجه تراكمات قهر لم يعد الإنسان المعاصر قادرا على احتمالها. والحل الوسط، الذي يتزعمه اقطاب التجرد الفكري والمعرفة الخالصة، انهم لايضعون هذين المنظورين في اسناد العلم، لانهم يعلمون بان العلم والتكنولوجيا في صالح آخر الامر. وما يبدو من ان المشكلة الاساسية في الاخلاق والسياسة انما هو محاولة لإيجاد طريقة للتوفيق بين حاجات الحياة الاجتماعية وإلحاح الرغبات الفردية. هنا خداع كامن. لان الحاكم فرد وصاحب المصنع فرد مثلما المفكر فرد. اذن مسألة الحاجات الفردية ذات حدين، احدهما مميت. واذا اخذنا بالرأي القائل "بحكم القانون لحماية المجتمع" فالقانون يدعمه الدين إذ يقرر الدين ان العصيان كفر. معنى هذا ان التمرد كفر والثورات كفر ونعلم أن نفوذ الكهنوت في كل العصور هو الموجّه للقانون الاخلاقي.

وهنا يصبح الحكام العلمانيون انفسهم لحد ما خاضعين للقانون في الحياة الدنيا والمكافآت والعقاب في الحياة الآخرة في حين لا ثواب لمن يثور ولمن يعصي من ابليس الى جيفارا! ومعلوم ان بدايات الارتياب في هذه المقولات" لم يبدأه "كانت" اللبرالي الحر ولكنه هيجل الذي حدد النتائج السياسية لذلك وهو اول من ارتاب. لقد اعتاد احفاد الدين والفضيلة والاخلاق ونقاء الضمير وهم (شركة "المثال" واولاده المحدودة...) ان يعترضوا بان التقدم العلمي ومعه حركات الشعوب قد تحقق انجازا اجتماعيا في بعض الحقول ولكن الوضع سيظل مبهما بالنسبة للفضيلة!وهو تفكير محترم ولكن لا نراه منزها من الغرض والا فهو منزه من الذكاء! فهل يعقل ان يحصل تقدم في الحياة والعلوم ويتوقف التقدم في التربية؟ لماذا؟ هل سيتوقف العقل البشري في هذا الجانب؟

ان رفض هؤلاء لا يتوقف على هيجل وماركس من بعده، ولكنه تعدى ذلكما التفكيرين الى رفض الجانب العملي من البراجماتية اعني التجريبية ونتائج التجريب. والسبب ان هناك تقاربا، ولو محدودا، مع الهدف الاجتماعي، وهذا ما استوقف روزين، تلميذ جون ديوي، فهذا الامريكي الذرائعي اضطر للقول بصحة رأي اليسار: "اليسار الثقافي محق بإصراره على العلوم الإنسانية والاجتماعية، فهي على الدوام مسيّسة بطريقة او باخرى ما عدا ان هي صارت الى الزوال، ولا توجد وسيلة للاحتفاظ بهذه الفروع من العلوم على قيد الحياة اذا انفصلت عن عملية التداول الأخلاقي والسياسي..." واضح كما ترون اعترافه وواضح كما ترون تردده في الإقرار بذلك. انها محاولة دائما للانحياز الى اليمين السلطوي، بتحديد أكثر الى المصالح المنتجة للفلسفة الذرائعية، وهذا هو السبب الكامن من وراء دعوى اليسار الثقافي المعاصر بان "البراغماتيين يفتقدون روح المسؤولية اجتماعيا.." ومن فرضية اخرى اكثر سلبية: "انهم متهمون بالدفاع عن ايديولوجيا قمعية.."

أما فوكو (اليساري) الذي يشكل حضورا في ثقافة اليسار الامريكي فيرى ان "فكر ديوي غير مؤسِس للتضامن الإنساني." وفوكو قام بعمل جبار ومهم حين فضح ميكانزمات السلطة وعد المشروع الغربي يندرج كلية في تنظيم شامل للقمع واللا عدل. وان عملية (الغرب) التاريخي لا تنفصل عن سياسته الفوضوية من حيث آليات القمع التي وضعتها الطباقات الحاكمة.

وهابرماس أيضاً يسند هذا التوجه ويقترب من الإنساني الاممي "إذ يفضل الاصلاحية الكونية على الاصلاحية المحلية" لانها تتجاوز كل محلية والى شمولية اوسع.

نحن إذن بإزاء اتهام واحد موجه الى متناقضين. فاتهام الفكر الذرائعي والفكر الغربي عموما من حيث انتهائه بالقمعية والشمولية، هو الاتهام نفسه الذي وجه الى فلسفة اليسار والإتجاهات الشعبية" التي وراءه، إذ حُمِّلَتْ مسؤولية القمع والشمولية أيضاً.

نحن، مثقفون إنسانيون، لا نرى ربحنا في التناقض او في الادانة. ربحنا في إيجاد الجدوى الإنسانية من كل الاطراف والجدوى الإنسانية تتطلب موضوعية لا ميولاً". ورفض الموضوعية ليس مما نحتاج له فكرياً وليس مما يرتضيه العقل اليومي. فلأنّ هذا الرفض مقرون بنكران أي مشابهة، أي تصور للطبيعة الإنسانية المشتركة ويحيلها الى الفلسفات التقليدية وانها ارث يرجع الى عصر التنوير والخطاب الديني، نجده يسند فلسفة "لا موضوعية" تعمل على تقويض فكرة الطبيعة الإنسانية المشتركة التي تسعى لها الثقافة الإنسانية عموما. نحن إذن، كما لا نرى ربحاً حقيقياً لأي طرف من هذا النزوع، مادمنا نتجاوز النفعية الآنية، الى التفكير بالمستقبل الإنساني الاوسع.

المثقف، إنساني النزعة، همه الاول، وغايته، المستقبل الافضل والمتطور للمنظومة البشرية. هو لا يعنيه ماركس الا لانه انجاز فكري وكذلك القول عن مفكري الغرب والعالم. الاجلال لكل من اضاف سعةً او اتجاها مفيدا للفكر الإنساني من أي طرف ومن أي مرحلة. ولهذا لا نرى الاحتراب النفعي مجدياً، ولايجدي الإنسانية ان تقوم المصلحة الامريكية والغربية على ما يقف ضد الماركسية او الاشتراكية اكثر مما يقف على تاييد مصلحة الجنس البشري.

مؤسف طبعا ان جون ديوي الذرائعي وتلميذ سيدني هوك في ثلاثينيات القرن العشرين، كان همهم: الحيلولة دون وقوع مثقفي اليسار الامريكي جميعا في شباك الماركسية على صورة زملائهم الفرنسيين واللاتين – امريكيين.."

ويقول الامريكي البراغماتي روزتي" ان تكون للإنسان واجبات اتجاه ناس آخرين وعدم التعدي عليهم ومساندتهم لقلب المستبدين واطعامهم في حالة الجوع، لايستتبع هذا ان يكون ما نتقاسمه معهم هو الاهم من كل شيء..."

يمكن ان نرتضي بقوله المنقوص هذا فهو حتى الآن في الاتجاه الإنساني. ولكننا نرى مفيدا تفسير ما تعرض له بشأن "زملائهم الفرنسيين" فهو يريد القول ان تفكيرهم ليس امريكيا ويساريتهم معرضة لان تكون فرنسية.

تفسيرنا ان للفرنسيين إرثاً ثورياً. والتاريخ الامريكي نشأ على كسب وضمان مصالح، مصالح افراد وجماعات. وفلسفة العمل، تبعا لذلك تبدو طبيعية في ضوء غياب التفكير بالعاملين ومستقبلهم- الا في حدود العون اذا جاءوا ومساعدتهم ضد المستبدين .

وهذا طبعا يخالف ما كان للفرنسيين من الثورة الفرنسية حتى القرن العشرين وبعده، اذ ظل التفكير منشغلا بقضايا الجماهير. بقي من بعد مهموما بمسألة: "كيف ينشط لإيجاد فكر جماهيري يقف ضد التفكير الماركسي ويستفيد منه."

وهذا في رأيي ما نجده لدى أكثر المثقفين الفرنسيين فهم يتفقون مع بعض اساسيات الماركسية في طروحاتها ويعارضونها في طروحاتها الاخرى. نقطة اخرى مهمة تاريخيا هي ان الفلسفة الامريكية التي مضت باتجاه آخر وجدت مواساة او عوضا عن جنوحها الذرائعي بـ"الديموقراطية". وهنا صار التفكير يميل للاتصال بالشعب. (معلوم ان الديمقراطية قديماً نشأت في المدن التجارية حيث الحاجة للتفاهم.) ولكن ما هي الاسس الواقعية التي تجعل لهذا الاتصال معنى بالنسبة للجماهير اليوم؟ وما قيمته وقد تخلت عن، او في احسن الاحوال انتقصت من، الفكر الثوري"لصالح خطاب اصلاحي يدعو الى مزيد من التسامح وقليل من المعاناة" وقليل من المعاناة تعني هنا: قليلا من التضحية! نحن اذن امام التسامح المسيحي وليس امام التحرر الثوري!

ان اعتماد"مبدأ" تسامح الذوات على حساب "صراع الطبقات القديم، او تقاطع المصالح الحديث، قدر ما فيه من "شعر" و "اخلاقية" فردية، فان فيه هشاشة نظرية.. هذه الهشاشة النظرية تقربنا من الشعراء الرومانسيين او من التهذيب الديني، لكنها تضعنا امام اللاجدية، وتبعدنا عن القرارات العملية (الثورية) التي قد تفتقد النعومة والشاعرية ولكنها تمتلك الموضوعية العملية. فقبل هذا بكثير لم تنفعنا سلوكية تولستوي الرقيقة بالنسبة للفلاحين ولكن الذي نفع هو قانون الاصلاح الزراعي بقرار ثوري"شرس" بالنسبة للملاك والطبقة العليا" "حازم" بالنسبة للثورة والجماهير.

المهم، علمياً، لا التفاضل بين الاتجاهات لكن المهم بالنسبة لنا الإفادة من الهامش الإنساني في كل منها فهي جميعا جهود إنسانية تتمنى الخير وتختلف نسب الانحياز الى "المصلحة" فيها ونحن نعلم ان لكل فلسفة انتماء وان لها منطلقا. واهتمامنا الاساس هو ترميم الارث الثوري واغناؤه لبناء طريق التقدم بعقل متنام لضمان صلاحية دائمة. نقطة الاختلاف الاكثر تجذرا اليوم هو عدم تسليم الفكر الغربي وبخاصة البراغماني بـ"الطبيعة المشتركة للافراد في المجتمع الإنساني" وهو خلاف ما يقول به اليسار الذي تعتمد فلسفته او فلسفاته على وجود طبيعة مشتركة لأفراد المجتمع الإنساني بل وللبشرية كلها. لحل هذا الاشكال يمكن مرحليا، تعديل المقولة من "طبيعة مشتركة" الى "وجود مشتركات" عند الافراد من البشر وهذه المشتركات هي التي اعتمدها التاريخ في تطوره وهي التي يعتمدها اليسار والماركسيون الجدد اليوم. هذا ليس تعديلا فكريا ولكنه تقريب للإفادة من كل المنجز العقلي البشري لصالح حركة الإنسان في طريق التقدم. وفي هذا فسحة للمذاهب الاخلاقية والروحية وللفكر الديني الاصلاحي الذي صارت تعابيره تكتسب صيغاً ثورية وهي صفة حميدة مهما كانت درجة الحقيقة وراءها.

ونقطة الاشكال المركزية الثانية هي ان جميع الاتجاهات الفكرية تفكر بصيغة فرد ومجموع وشعب ولاية وشعوب متحدة وقد يتجه التفكير لإيجاد شعب إنساني واحد على الكرة الارضية. وقد يكون هذا افتراضا لكنه افتراض ممكن في ضوء اتحاد المصالح والاتصالات والحقوق العامة للإنسان وتماثل القوانين فضلا عن طرق التدريس والصناعات واتصال المدارس الفكرية والفنية والعمارة وانظمة العمل والنظام المصرفي وشؤون التغذية والعلاج ... شخصيا ارى انحسار الكثير من خصائص الفردانية لصالح "الجمع" ثم، من قال ان الخصائص الفردية ستبقى كما هي ولا تفترض وجودا إنسانيا ذا تكوين جماعوي وهو مقارب جدا للإنسان الذي ارادت الماركسية خلقه والذي بنى الاتحاد السوفيتي؟

والاسلام من قبل تقدم للناس بخير الناس من نفع الناس وامتكم امة واحدة ولا فرق بين ...الخ وهنا لا تكون الماركسية "حالمة" كما يصفها الفكر الغربي، بل ستكون فلسفة وضعية واقعية تعتمد العلوم الاجتماعية في صياغة تطورية للإنسان حسب النتائج وهذا ما تريد البراغماتية أن تصف به المؤسسات والافراد ولكن بعيدا عن الفكر الجمعي. فهي تقول بان الإصلاح الاجتماعي وانصاف المحرومين لا يتأتى عبر نضال هذه الجماهير ولكن عبر "الإحساس الاخلاقي" وهذا الإحساس "يُخلق عندما نشعر بالتفاصيل الدقيقة لمعاناة ومهانة نماذج من بشر ليسوا مقربين منا..".

أليس هذا فكر ديني تقليدي؟ كم تقدمنا إذن؟ لكن اذا نحينا فكر اليسار في هذا الشأن، كم نحتاج من الزمن لنمو "الإحساس الاخلاقي" حتى يصل الى درجة الفعل وحسم الاشكال الاقتصادي الكبير؟ الاحساس الاخلاقي لم يتقدم كثيرا من المسيح حتى اليوم والدعوات الدينية متنوعة ومستمرة .. الكلام في "الإحساس الاخلاقي" ليس مقنعا ولا نرتضيه وحده حلا كما لا نرتضي أبداً العنف الذي يصحب الثورات وقد ابطل تطور الاقتصاد الى حد كبير مفهوم صراع الطبقات..

وهكذا نجد انفسنا في امتحان صعب، يستوجب زمنا نضاليا جديدا لحماية الإنسان اولا ولضمان مستقبله بعيدا عن الحاجة والاستغلال. اما الامتثال لشروط الواقع الرأسمالي وترك الإنسان لطاحونته فذلك ما لايرتضيه الوعي. بقي السؤال الشائك: كيف نضمن حرية الفرد في مرحلة بناء هذه المستقبل وبعده؟

ذلك ما يدعونا لاحترام جميع الافكار وما يجعلنا نقرّ بأن فلسفة واحدة لا تكفي. وان الفكر البشري إذا جعل من الإنسانية هدفا مركزيا اولا، فبهذا "الفكر الكبير" و "بنضال" البشرية العلمي المنظم، لن يتعذر الوصول يوماً ولن يكون هذا اليوم بعيداً جداً. التكنولوجيا اليوم والتطور العلمي المتسارع قوتان هائلتان تناصران مسعى الإنسانية وليستا ضده، كما يفكر المرتعبون من عظمة العصر التي هي بالتأكيد عظمة الإنسان أيضاً.

ولكي نتواصل في الافكار ونشترك في مقوماتها، لابد من إشاعة التثاقف بها. اعني في المفهومات المعتمدة للتصور الذي ترسمه. والتثاقف إما ان يكون قسرياً ولفائدة مجموعة واحدة، كما هو الشأن في الاستعباد او الاستعمار. أي ان تكون هناك ارادة تعدّل بالقوة، ثقافة المجموعة المُهيْمِن عليها بغية اخضاعهم لسلطان تلك الإرادة المتسلطة. مقابل هذا هنالك التثاقف المخطط له والذي يسعى لكي يكون نسَقياً ويستهدف آجالاً بعيدة. وهو التثاقف الذي تنشره "الفلسفات الثورية" ويُضبط هذا التخطيط اعتماداً على معرفة مفتَرَضة بالحتميات الاجتماعية والتاريخية. وهذا يمكن ان يؤدي الى:

من النظام الرأسمالي الى ثقافة الاستعمار الجديد.

من النظام الشيوعي إلى "ثقافة بروليتارية".

فإذا ابدلنا كلمة "بروليتارية" المفزعة للبعض بكلمة "جماهيرية"، سنجد انفسنا امام مسألة لانختلف عليها بعدوانية، أي لانتصادم بسببها ولكن اختلاف مصالحنا يجعلنا لا نتفق تماماً.

وقد يواجهنا معترض: لكنا توصلنا، الى التجريب وفيه نقطة لقاء أيضاً، واقول نعم، كما الثقافة، في بعض جوانبها. التجريب جيد والبرجماتية التي تتخذ التجريبية سبيلا، جيدة في جانب اساس منها. لانختلف في انها اضافة تاريخية للفكر الإنساني. ونحن نتابعها باحترام من "لوك" الى "ديوي" الى "ديزني". والليبرالية لطيفة وأنيقة لكن القنبلة الذرية على هيروشيما كانت تجريباً أيضاً وكانت تعبيراً عن فحوى. واحتلال العراق وتدمير بناه التحتية ما كان حباً بالجماهير الفقيرة قدْرَ ما كان حماية وضماناً لحقول النفط في المنطقة. هل لدينا سند عقلي واحد انه كان لإسعاد شعب المنطقة؟ على العكس لدينا البيان الذي اشرت اليه من قبل، تصريح البراغماتي الامريكي رورتي: "عدم التعدي عليهم، مساعدتهم لقلب المستبدين واطعامهم في حالة الجوع، لكن هذا لا يوجب ان يكون ما نتقاسمه معهم الاهم من كل شيء ..

ما رأيكم في ذلك التفكير؟ انه تفكير فاجع بالتأكيد. لكن من جهة اخرى نواجه إحباطاً آخر ذلك ان النبوءات الماركسية، بانحرافياتها الكثيرة والاشتراكيات الزائفة حتى خرجت منها، أو التي ارادت إجهاضها، لم تحقق من مضمون الاشتراكية بقدر ما حققت دكتاتوريات ومعسكرات اعتقال تلتها مجازر مخطط لها للمتمسكين بجوهرها. القوى المضادة لم تسمح لأي تجربة اشتراكية بأن تكتمل. وحتى الاتحاد السوفيتي، هو لم يحقق الاشتراكية ولا اقترب كثيراً من الشيوعية. ما حققه هو رأسمالية الدولة، والكارثة كانت وليدة ذلك.

وكما اتضح، كلما استعرضنا فكراً او نظرية، اشحنا عن بعض جوانبها. ونحن جميعاً نريد ان تخدم الفلسفة والنظرية هدفاً ايجابياً. وما يصدنا دائماً هو التعصب. الدوغماتية ضارة كما ان الشكوكية مربكة. الشكوكي في الاخير عقيم غير منتج. ونحن بعد كل هذه المعرقلات لا نريد الاستسلام الى اللاجدوى والى اللاعمل. نعترف بأن كل معرفتنا غير مؤكدة في بعض جوانبها وغامضة في جوانب منها. ولكن امامنا تجارب. فلنرَ مصالح الناس بعدها. الهند والصين استقلتا في زمنين متقاربين. كم عدد الشحّاذ في الصين؟ كم عددهم في الهند؟ نظام الحياة؟ الضمان الصحي؟ التعليم؟ السكن؟ التقدم الاجتماعي لعموم الشعب؟ اننا لسنا ضد حزب المؤتمر ولسنا مع الماوية والحزب الشيوعي الصيني، لكننا نبحث عمّا يجدي وعمّا هو صحيح. في اوكرانيا واوروبا الشرقية، من لم يحصل على شقة للسكن في الحكم السوفيتي ظل بلا سكن حتى اليوم ولا امل بحصوله على سكن والبلدان متعبة اقتصاديا وتزداد تعبا.

في لقاء اجريته مع استاذ للادب والجماليات في اوكرانيا، نشرته في "الاسبوعية" ، حدّثني عن نعمة الحرية التي اكتسبوها وحين سألته عن نشر كتبهم، قال لي لا أحد يستطيع ان ينشر كتاباً إذا لم يكن يملك مالاً! وعن شراء الكتاب؟ قال، صار من الصعب ان يشتري المواطن كتاباً لغلائه ولأنه بالكاد يعيش، ولكن نعمة الحرية لاتعوّض! وانا معه ان نعمة الحرية لا تعوّض، لكن هذه حرية مقصوصة الجناحين لا أحد يتمتع بها.

جميل ومنظم هو الكلام المرصوف في المكتبات، لكن القليل منه قابل لان يتحول خبزاً وثياباً وسعادة إنسانية!

ماركس

فوكو

هابرماس

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة .
٢. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:

Opinions112@ yahoo.com